مظاهر التعصب والعنصرية في ردود الجاحظ على الشعوبية

علي عباس سليم*

على الرغم من تباين استراتيجيات القراءة ومناهج التحليل، إضافة إلى معايير الأحكام من هنا هناك، فإنني أستطيع أن أستخلص من هذا التواصل التاريخي المتراكم والمتواصل بين القدماء ونثر الجاحظ (776 – 868م)، جملة من السِّمات والمكوّنات التي شكّلت نسيج بلاغة نثرية استطاعت أن تنافس بلاغة الشعر، وأن تستأثر بعقول القرّاء ووجهات نظرهم على اختلافها، لذلك ولأسباب كثيرة من أبرزها: ذكاء الجاحظ، وبلاغته وقدرته البيانية التي تحمل القارئ وتدفعه للاقتناع بوجهة نظره، طمحت إلى إظهار سمات نثر الجاحظ والمكونات والوسائل التي شكلت نسيج بلاغته وقدرته الإقناعية، والتي استطاعت أن تنافس بلاغة الشعر.

أحاول من خلال هذه الدراسة أن أرصد قراءات الجاحظ، وأن أفهم نثره الأدبي، وما ينطوي عليه من أساليب تداولية من خلال كتابه البيان والتبيين.

لقد رفض الجاحظ بقوة الاستنتاج دون توافر الرواية أو المشاهدة، ووضع المبدأ والاستخراج اللذين لا يكونان إلا من عيان أو خبر عنده، وهنا لا بدّ من طرح التساؤلات: هل لازم أبو عثمان هذه القاعدة في استخراجاته أجمعها؟ هل اعتمد أبو عثمان مبدأ الإقناع، أي إنه يقرع الحجة بالحجة؟ وهل كان أبو عثمان موضوعيًّا يلزم الحياد والأمانة العلمية؟

كل هذه التساؤلات ستتم الإجابة عنها في هذه الورقة البحثية، ولقد قيل الكثير عن الجاحظ، وقد كالوا لنثره المديح من كل أوب وصوب، فمنهم من انحاز إليه بالسياسة، ومنهم من اقتنع لمصلحة، ومنهم من أخذته طلاوة الكلام وحلاوة بيانه، مع الإشارة إلى أن التناقض سمة من سمات نثر الجاحظ، وقد اقترن عنده بالمقدرة البيانية وقوة الإقناع، بصرف النظر عن قيمة الموضوع وطبيعته أو موقف المتكلم، فكل الأفكار والقضايا والمواقف يمكنها أن تكتسب الشرعية بالبيان، فالأمر يعود في النهاية إلى الوسائط التي يعرض بها، وهذا ما أعمل على إظهاره، وأكشف سعي الجاحظ إلي ذلك.

– **توطئة:**

لا شك أن آراء العاملين على الأدب وتحسينه، تتصف بالأرجحية والعمق تجاه نثر الجاحظ، إلا أن هذه الآراء جاءت متباينة، منها ما هو مؤيّد تمامًا وكال المدائح، ومنها ما هو مخالف لهذا الرأي، وانهال على أبي عثمان بالاتهامات والقدح والذم، والحقيقة ما أنا فيه فيه الآن وما أنا

بصدده، سألتزم فيه جانب الحياد العلمي الخالص، وأعمل على قرع الحجة بالحجة، وقد يسعفني في ذلك تجردي هذا، أن حقبة الجاحظ قديمة، فلا أنا أزيده تألقًا إن امتدحته، ولا أقلل من قيمته الأدبية إن أظهرت بعضًا من تناقضاته.

- **دوافع اختيار الموضوع:**

لهذا البحث دافعان أساسيان: الأول هو قضية ضرورة البحث لما لاحظته من تناقض في نثر الجاحظ، وعلى وجه الخصوص في كتاب الحيوان، وهو كتاب أعدّه زينة نثره، وزبدة إنتاجه، وقد افتتح باكورة كتاباته، ورغبة في تتبع هذه الحالة التي قد لا تكون ممكنة، وأعني التناقض في منطق أبي عثمان، وأنه يعتمد في الإقناع على الطلاوة والحلاوة في الأماكن التي لا تتوفر لديه الحجة، ويكتفي بالبيان وحسن التخلّص في الكلام، هذه مسألة تستحق الاهتمام، والدافع الثاني يقوم على تجريد الكلام البشري ضمن قواعد معيارية انطلاقًا من ممارسة نقدية على تراث الجاحظ النثري، وقد اعتمدت لهذه الدراسة المعيارية للخطاب مصطلح "الوظيفة" من الخطاب، لأنه أبو عثمان الجاحظ أديب العربية، صاحب الخبرة الكبيرة والباع الطويلة في النثر وفنونه.

- **الإشكالية والفرضيات:**

تنشغل هذه الدراسة بإشكالية العلاقة بين الأساليب البيانية والبلاغية في النثر وبين قوة الإقناع، وتأخذ هذه الإشكالية مكانها العلمي الأصيل في هذه الدراسة، وأحاول في هذا البحث التعرّف إلى منزلة العواطف في عدد من المواقف المختلفة لأبي عثمان الجاحظ، وأعمل للكشف عن العلاقة التي يمكن إقامتها بين العاطفة وقوة الإقناع بالرأي على تعثره وافتقاره للحجة العلمية البيّنة، وكيف يتعوض المنشئ بالأساليب اللغوية والبيانية تتملص من الحجة المبينة على المنطق العلمي.

هنا لا بدّ من الإشارة إلى أن أدب الجاحظ يستقر على كرسيه الأدبي الجميل، دون أن يرتقي إلى الحقيقة العلمية التي تستند إلى المنطق العلمي، وهذه الإشكالية هي مدار هذا البحث على قلة صفحاته، وهنا لا بدّ من عرض جملة من التساؤلات التي تتطلب الإجابة عنها: هل أن الجاحظ صاحب منطق علمي خالص؟ هل الجاحظ علمي محايد يقرع الحجة بالحجة؟ وهل استعمل أبو عثمان البلاغة والبيان لأغراض غير التجميل كالعمل على حمل الآخر للاقتناع برأيه كأن يؤخذ بالزخرف؟

كل هذه التساؤلات سأعمل للكشف عن إجابات لها في هذه الدراسة معتمدًا على الدليل العلمي وملتزما الحياد.

- **المنهج المتّبع:**

إنّ من مقتضيات هذه الدراسة اعتماد المنهج التحليلي، لأنه المنهج الأكثر ملاءمة على ما أعتقد لمقاربة نصوص تعود إلى قرون سالفة، وقد لا يمكن العمل على منهج بمفرده لأن الإشكالية تطرح اختيار المنهج المعتمد للبحث، وبما أن الكثير من المسائل التي أتناولها جمالية في جانب كبير منها، فإني أعتمد إلى جانب المنهج التحليلي المنهج الجمالي، كي أتمكن من تصويب البحث نحو هدفه، وهذا

يساعدني في ملاحظة وضبط النواحي الجمالية والبلاغية التي توسلها الجاحظ لتمرير مقاصده وقناعاته التي يؤمن بها، وقد ترجع هذه القناعات إلى غايات ربما سياسية أو عقدية دينية أو غيرها، وخلال هذا المنهج الأدبي الجمالي، وبجانبه المنهج الاجتماعي، يتحتم على تقسيم هذا البحث إلى مقدمة وتوطئة وفصل واحد وخاتمة.

- **نبذة عن أبي عثمان الجاحظ:**

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني. ولد في العام 159هـ، وتوفي في 255هـ، (776- 868 م)، وذلك في البصرة حاضرة الفكر والعلم آنئذ، لا تضارعها إلاّ الكوفة، كان فقيرًا وقد مات أبوه وهو صغير على الأغلب، فكان عليه منذ طفولته أن يعمل لمساعدة أمّه في كسب معاشه.

لزم الجاحظ الكتاتيب حينًا، وخالط المسجديين حينًا آخر، حضر حلقات العلم في أماكنها، لم يترك فرصة إلاّ وغنمها في تحصيل المعارف والعلوم، حتى صار من كبار علماء عصره، جمع من كل علم، وتثقف بكل ثقافة، حتى لتجد كتبه جامعة مانعة في مختلف أوجه العلم والفكر والأدب.

أما كتبه التي بقيت لنا، فقليلة جدًا من أهمّها ثلاثة: كتاب البيان والتبيين، كتاب البخلاء، وكتاب الحيوان.

- **نظرة تاريخية في بلاغة الجاحظ:**

استمر نثر الجاحظ عبر التاريخ في إثارة الجدل، على الرغم من التأثير الذي أحدثه في الأدب العربي والإعجاب الذي حظي به في العصور اللاحقة، فقد أطلق على كتبه وصف أنها مفسدة ولا فائدة منها وفي ذلك قال البغدادي: "وأما كتبه المزخرفة فأضاف: منها كتاب في "حيل اللصوص" وقد علّم بها الفلسفة وجود السرقة، ومنها كتابه في "غش الصناعات" وقد أفسد به على التجّار سلعهم، ومنها كتابه في "النواميس" وهو ذريعة للمحتالين يجتلبون بها ودائع الناس وأموالهم، ومنها كتابه في "الفتيا" وهو مشحون بطعن أستاذه النظام على أعلام الصحابة، ومنها كتابه في "حيل المكدين"... ومنها كتاب "طبائع الحيوان"... وقد شحنه بمناظرة الكلب والديك، والإشغال بمثل هذه المناظرة يضيع وقت بالغث، ومن افتخر بالجاحظ فقد سلمناه إليه.

وقد ألّف أبو حيّان كتابًا سماه البصائر والذخائر، وقد أورد فيه ما قاله ثابت بن قرّة، إذ قال: "فسبحان من سخّر له البيان وعلمه، وسلم في سده قصب الرهان وقدمه، مع الاستعارة الصائبة، والكناية الثابتة، والتصريح المغني، والتعريض المبني، والمعنى الجيد واللفظ المفخم، والطلاوة الظاهرة، والحلاوة الحاضرة، إن جد لم يسبق، وإن هزل لم يلحق، وإن قال لم يعارض، وإن سكت لم يعرض له..."[1].

وفي هذه المقتبسة لم يتعرض إلى دقائق أسلوب الجاحظ وقدرته الحجاجية في إقناع الآخرين بوجهة نظره بل إلى بيانه.

وقال أبو حيان التوحيدي أيضًا عن مذهب الجاحظ مادحًا له: "مدير بأشياء لا تلتقي عند كل إنسان ولا تجتمع في صدر كل أحد: بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ، وهذه مفاتيح قلما يملكها واحدة"[2].

لقد أبدى أبو حيان إعجابه ببلاغة الجاحظ، ولم يتطرق إلى أسلوب الجاحظ ولا إلى الموضوعات التي تحدث عنها.

وهكذا فلقد تأرجحت مواقف القدماء من نثر الجاحظ بين الإعجاب ببلاغته والتقليل من قيمتها، فهناك من سعى إلى ذكر سمات تقلل من قيمتها وفاق معايير متباينة، فبديع الزمان الهمذاني مثلًا يقول بأن البلاغة لا تكتمل بغير الشعر، وعن ذلك يقول في المقامة الجاحظية: "... فأخذنا في وصف الجاحظ وتسنه وحسن سنة في الفصاحة مسننة، فيما عرفناه. فقال: يا قوم بكل عمل رجال ولكل مقام مقال، ولكل دار سكان، ولكل زمان جاحظ، ولو افتقدتم، لبطل ما اعتقدتم، فكل كشّر له من ناب الإنكار، وأشم بأنف الإكبار، وضحكت له لأجلب ما عنده وقلت: أفدنا، وزدنا. فقال: إن الجاحظ في أحد شقي البلاغة يقطف. وفي الآخر يقف. والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره، ولم يزر كلامه بشعره. فهل ترون للجاحظ شعرًا رائعًا؟ قلنا: لا. قال: فهلموا إلى كلامه فهو بعيد الإشارات وقليل الاستعارات، وقريب العبارات، منقاد لعريان الكلام يستعمله، نفور من معنى... يهمله، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة، أو كلمة غير مسموعة؟ فقلنا لا..."[3].

وإن كان صاحب المقامات قاسيًا في حكمه جائرًا في معادلته، إلا أن حقيقة يجب التسليم بها أن موقفًا قد سجله البغدادي في شؤون بلاغة الجاحظ، وأن موقفًا معترضًا قد ظهر عليه، على الرغم من أن ذلك يندرج مثل الكثير من القراءات التي قاربت نصوص الجاحظ من زاوية يغلب عليها النزعة الاختيارية، تهدف إلى إثبات فعالية أدوات البلاغة في أدب الجاحظ.

لقد تصدى الجاحظ لظاهرة الشعوبية فكان خصمًا من خصومها، وعدوًا لدودًا من أعدائها، تصدّى لها كما تصدّى لقرينتها الزندقة. نافح عن العروبة والإسلام ردحًا طويلا من حياته المديدة، وعلى الرغم من اتهام المسعودي له بالشعوبية، وأنه كان يفضل النبط على العرب[4] ومنهم من اتهمه بالزندقة، فان ما وصلنا من كتبه وأخباره يؤكد وقوف الجاحظ في وجه الشعوبيين والزنادقة على حد سواء.

- النصّ:

"... ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق، وكان صاحب المنطق نفسه بكيء اللسان، غير موصوف بالبيان، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه، وبخصائصه، وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس، ولم يذكروه بالخطابة، ولا بهذا الجنس من البلاغة، وفي الفرس خطباء، الا أن كل كلام للفرس، وكل معنى للعجم، فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي، وطول خلوة وعن مشاورة ومعاونة، وعن طول التفكر ودراسة الكتب، وحكاية الثاني علم الاول، وزيادة الثالث في علم الثاني، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم، وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكرة ولا استعانة، وانما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصام، أو حين أن

يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة والمناقلة، أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالا، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا، ثم لا يقيده على نفسه، ولا يدرسه أحدا من ولده. وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر وأقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانة من البيان أرفع، وخطباؤهم أوجز، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس، وليس هم كمن حفظ علم غير، واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب، وان شيئًا من الذي في أيدينا جزء منه لبالمقدار الذي لا يعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب، وعد التراب وهو الله الذي يحيط بما كان والعالم بما سيكون.

ونحن أبقاك الله إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع ومن المزدوج وما لا يزدوج فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة والرونق العجيب والسبك والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم، ولا أرفعهم في البيان أن يقول في مثل تلك إلا في اليسير والنبذ القليل.

ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي في أيدي الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة غير مولدة إذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هرون وأبي عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل، ويصنعوا مثل تلك السير.

وأخرى أنك متى أخذت بيد الشعوبي فأدخلته بلاد الاعراب الخلص، ومعدن الفصاحة التامة ووقفته على شاعر مفلق، أو خطيب مصقع، علم أن الذي قلت هو الحق وأبصر الشاهد عيانا فهذا فرق ما بيننا وبينهم.

فتفهم عني فهمك الله ما أنا قائل في هذا واعلم انك لم تر قومًا قط أشقى من هؤلاء الشعوبية، ولا أعدى على دينه ولا أشد استهلاكًا لعرضه ولا أطول نصبًا ولا أقل غُنْما من أهل هذه النِّحْلة. وقد شفى الصُّدور منهم طولُ جُثُوم الحسد على أكبادهم، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم، وغليان تلك المراجل الفائرة، وتسعّر تلك النّيران المضطرمة. ولو عرفوا أخلاق أهلِ كلِّ ملة، وزيِّ أهل كل لغة وعللهم، على اختلاف شاراتهم وآلاتهم، وشمائلهم وهيئاتهم، وما علَّة كل شيء من ذلك، ولِمَ اجتلبوه ولِمَ تكلّفوه، لأراحوا أنفسهم، ولخفَّت مؤونتهم على من خالطهم..."[5].

- خصائص الجاحظ الأدبية في هذا النصّ:

تسعى هذه المقاربة إلى إعادة بناء مفهوم بلاغة نصوص الجاحظ النثرية والأدبية تاريخيًا، على نحو ما شكله الوعي القرائي للذين تعاقبوا على قراءة الجاحظ، والحكم على كتبه ونثره منذ القرن الثالث

الهجري حتى اليوم، فهذا النثر لم يتوقف عن إثارة الأسئلة المتجددة بتجدد الآفاق.

لقد توخّيت من هذه الدراسة معرفة خصائص بعض هذا النثر من خلال نصّه الأدبي في كتابه "البيان والتبيين"، حيث يقع في غرة الجزء الثالث ص 28.

- **مدخل:**

يمكنني تقديم هذا النصّ بمستوين وذلك لإظهار خصائص هذا العلم الشهير الذي قامت بلاغة نثره في وعي القرّاء المتعاقبين، وقد ظهر أن الجاحظ بيانيّ قويّ الحجة قادر على الإقناع والإفهام والتأثير في متلقيه وتعليمهم وتثقيفهم وتغيير سلوكهم، والجاحظ مصور قادر على الوصف الدقيق والقص الممتع، تدل على ذلك نوادره وأخباره ورسائله ومناظراته في "البخلاء" وكتاب "الحيوان" و"البيان والتبيين" الذي نحن بصدد التفرغ لقراءة نصّ منه، والتصدي لمدلولاته ومقاصده، وبعد القراءة تبيّن بالشواهد ما يلي:

- **المستوى الأول:** لغوي يهدف إلى دراسة النص من ناحية الفهم والتحليل
- التزيين اللغوي: الكلمات الجديدة المعجمية:

بكيء: قليل الكلام سيئه.

تنثال: أي تنهال عليه دفعة واحدة لا تترك له مجالًا لترتيب الأفكار.

يزعمون: يقولون كذبًا.

أظهر: أكثر بيانًا.

الديباجة الكريمة: الزينة.

خطيب مصقع: بليغ وفصيح.

- أفعل التفضيل: وعدها 20: أشعر - أدفع - أوجز - أكثر - أقدر - أقهر - أنطق - أبصر - أعدى - أعلم - أشد - أشقى- أقل- أرفع- أقل- أشد...، والغاية المفاضلة ما بين العرب من الجهة والفرس واليونان من جهة أخرى.

ولتعريف الفكرة ولتسهيل المبادرة لدى القارئ في اتخاذ القرار، فقد جعل أسماء التفضيل في احتشاد متتالٍ يرافق صفات أجزلها للعرب دون غيرهم، وقد خصص مساحة من النصّ تساوي أضعاف ما تركه لكل من الفرس واليونان مجتمعين، لإقناع الكاتب بأفضليتهم، ولعله يقصد من ذلك، التأثير في القارئ لاستثارة عاطفته، وذلك لقاء الحجة العاطفية عنده، لأن قلقًا على الهوية العربية ساد تلك الفترة بسبب تدفق الهجرات والسياح وطلبة العلم إلى بغداد، أو من الساعيين من الأقوام والوجهاء لخطب ود الخليفة، والعربي لم يكن بعد قد استعد بالكامل لاستيعاب المثالية الإسلامية الجديدة وما يتبعها ويترتب عليها من مستجدات، لذلك رأيت خطاب الفصل بين ما هو إسلامي وما هو عربي، على شكل يظهر العربي مواطنًا من مقام أول، والآخرون من مقامات شتى...

- **استنتاج:**

من الأعمال المتحققة بالعاطفة العمل المقصود بالقول الذي يراد به تلك القوة الكامنة في العاطفة، باعتبارها حدثًا تواصليًا، فالمتكلم قلما يكتفي بالتعبير عن عاطفته لمجرد إحضار تلك العاطفة، بل ينشد من وراء ذلك إنجاز أعمال مركبة

يرتهن تحققها بتوافر جملة من الشروط، فقد يكون العمل المقصود بالقول اتهامًا أو تهديدًا أو تأنيبًا... وكل عمل من هذه الأعمال يمكن أن يتزامن حضوره مع عمل لغوي آخر ليكون لكل واحد منهما عمل تأثيري بالقول مختلف عن الآخر، كأن يكون الأثر الناتج من القول انزعاجًا يظهر على المخاطب، ولعل للتأثير بالقول الذي ينجز بالعاطفة دورًا مهمًا في العملية الحجاجية يفوق ذاك الذي يوحي به ظاهر الكلام، فقد يبدو المتكلم متلطفًا في تعابيره لكن ما يظهره ذلك المتكلم من عواطف في كلامه، فالجاحظ يعمل مع القارئ كي يصرف نظره عن الأفكار نحو اللغة والانشغال بأشياء أخرى؛ لهذا يقحم في هذا النصّ أفعالًا هائلة العدد نسبة إلى حجمه؛ فلقد فاق عدد الأفعال المستعملة الـ80، والهدف من ذلك أن يحمل القارئ إلى ضرورة الانحراف عن الفكر إلى الجمال، لتثبيت التهمة على غير العرب بالقصور وعدم الفصاحة.

- **المستوى الثاني: وظائف الخطاب الحجاجي عند الجاحظ:**

الحجاج برأي النقاد هو سعي الكاتب إلى إحداث أثر في الآخر؛ لحمله إلى الموقف الذي يريده وذلك عن طريق الآتي:

1) **المقصدية العاطفية:** لعلّ منطلقي في هذه الفرضية يعود إلى مقولة أرسطية قديمة تلحظ أنّ العواطف يمكن أن تكون موضوعًا يتنازع في شأنه المتنازعون، وعليه تدور عملية البناء الحجاجي، وقد رأيت أن أتوقف عند الخطابة الأرسطية التي عدّت من أبرز النظريات القديمة التي تعرضت لمسألة العاطفة والتي أفسحت لها مكانة لا بأس بها وقد أسماها أرسطو بمشاعر الجمهور، وقد جعل للخطيب مساحة كبيرة في إثارة هذه المشاعر لتحقيق الإقتناع، وهذا من حجج الاحتيال التي يلجأ لها الخطيب أمام الجمهور*. وهذه ترتبط بالمكون الغائي ذي الصلة بإحداث الانفعال في المتلقي، وجعله يستسلم لمحتوى الخطاب وغرضه، أي الظفر باقتناع جمهور القرّاء من جهة الإفلاح في تحقيق المتعة الجمالية لهذا الجمهور، ويتعلق الأمر بالغرض الانفعالي الموجود في الإشباع المترفع"، وفاق عبارة كانط، وكلام الجاحظ في هذا النص لا يقوم على أساس الصحة والخطأ بل على أساس معادلة المقبولية وعدم المقبولية بالاستناد إلى عاطفة ضد الأمم المحيطة من روم وعجم، ويعمل أبو عثمان على تقديم نصه هذا على هذا الأساس، وأن ما ينسب إلى العرب من أنانية حينها من قبل الأعاجم قد شكل بيئة صالحة لسلوك ما يقدمه الجاحظ من تهم ضد الأعاجم سلوك الرضا والمقبولية.

2) **مقصدية التهييج:** ترتبط بالانفعالات العنيفة أو الحادة التي ينشد الخطاب إثارتها في القرّاء، والقصد في نهاية المطاف هو الإقناع بواسطة الحلية اللغوية، إن أي نصّ يحمل حقيقة ما، أو واقعة ما، لا تكون هذه الحقيقة مقبولة إلا إذا تم التسليم بسلطة ما، وهنا الجاحظ يراهن على سلطة البلاغة التي تتضمنها عباراته في هذا النص.

3) **الموضوعية:** من المعهود عن الجاحظ أنه محاجج منطقي ومفحم متميز، يقرع الحجة بالحجة، أما في نصّه هذا، فلقد افتقر إلى الحجة المقنعة، بحيث لا يبدو الخطاب واقعيًّا، فهو لم يقدم دليلًا قاطعًا على إفلاس اليونان الأدبي أو على ضعف منطقهم، ولا هو أشار بالحجة إلى فساد اللسان الفارسي، وتقاعس عقولهم، بحيث جعلهم يتوارثون الحقائق والأفكار عن بعضهم مع تراكم الأيام. وهذا اتهام اعتباطي يفتقر إلى المنهجية العلمية، في حين أنّه يرى أن ذلك متيسر عند العرب، وأن البلاغة لا تكلفهم العناء الكبير.

4) **مبدأ التجهيل والتعمية:** وقد ظهر ذلك حين قال عن العرب إنهم مطبوعون لا يتكلفون... هذا كلام يقصد منه التجهيل والتعمية، فماذا يعني "مطبوعون"؟ فمن طبعهم؟ وكيف شكل هذا الطبع؟... ماذا تعني كلمة "مطبوعون" لغويًّا؟ أليست على شكل يلزمه ترجمة كأنها شيفرة تتطلب فكاكا لرمزها؟

5) **العنصرية:** يظهر خطاب الجاحظ غاية في العنصرية، حين يطلق التعميم ليقول: الفرس واليونان والعرب، وهل من الحق اليوم أن اتهم كل الأمريكان بصفة ما، لأن حكومتهم تظلم العراقيين مثلًا، أو تهدد لبنان، إن مثل هذه العنصرية في خطابه من شأنها استمالة العرب في ذلك العصر، وهذا نوع من اللعب على أحاسيس وعواطف الجمهور. مع الإشارة إلى أن جهابذة اللغة فلاسفة الحكمة ممن سبق أو عاصر أبا عثمان، كانوا من غير العرب، فهم يرجعون بالنسب إلى الفرس أو الروم أو غيرهم، وأذكر على سبيل التمثيل لا الحصر: الكسائي، وسيبويه، ونفطويه، وابن خالويه، وعمر الخيام، وأبو بكر الرازي والخوارزمي، والشيخ الرئيس، والبخاري، والفارابي، وابن الرومي، وابن خلدون لاحقًا، وابن رشد، والبيروني، والأصبهاني والطبري... إلخ.

6) **التَّطويع:** التطويع مصطلح حديث العهد إلا أنّ مفاعيل العمل به كانت قديمة وستبقى وقد عرفه فيليب بريتون (Philippe breton)، فقال: "... فعل عنيف ومكره بسلب حرية الآخر لإخضاعه. وهو بمنزلة كذب منظم يتوخى منه إيقاع الآخر في الخطأ..."(6).

ولقد جعل له الكاتب عناصر يقوم عليها منها: تمويه الخبر، والضرب على الوتر الحساس، الشعور بالذنب؛ الآلاعيب، إطار الافتراء، إطار المغالاة، الإطار المكره، وله أنواع لا مجال لذكرها هنا. هو أن يمارس المطوِّع فعلًا إقناعيًّا على المخاطب بالاعتماد على جهة القدرة، بحيث أن الشخص المطوِّعُ أرفع مرتبة من الشخص المطوَّعِ، وللتطويع مقومات منها.

- **تمويه الخبر:** وهي عملية تقوم على تضليل القارئ بتوظيف أخبار مغلوطة أو تضخيمها لأهداف محددة سلفًا، وهكذا نجح أبو عثمان في ذلك حين نسب القصور إلى الأقوام الأخرى بغير وجه حق، والغاية معروفة من ذلك لأن الجاحظ يستوحي منها الوظائف الخطابية التالية:

أ- **الوظيفة المذهبية:** لتبرير مذهب السلطة العباسية فيها ورضاه عن مذهب

المعتزلة وهو منهم، وذم الحنابلة على وجه الخصوص.

ب- **الوظيفة السياسية:** لأن الجاحظ حليف السلطة ولذلك يدافع عنها.

ج- **الوظيفة الدينية:** وذلك للرد على من يطعن في دين الدولة.

د- **الوظيفة العقدية:** لأن عقيدة الجاحظ هي نفسها عقيدة الدين في الدولة العباسية.

هـ- **الوظيفة الشخصية:** لأن له الرغبة في فرض سلطته على الآخرين من خلال إقناعهم بشتى الوسائل الفكرية المتاحة.

و- **الدعاية:** ويقوم على ترسيخ مبادئ معينة في ذهن العامة، ولحثّهم على ترددها ونشرها على نطاق واسع بهدف حصول إجماع عليها وحولها، وهذا ما ظهر في نصّ الجاحظ حين بدأ بالحديث عن بلاغة العرب وفصاحتهم، ومقدرتهم العالية على الكلام، وهو يعرف أن مثل هذه الدعاية ليست مرفوضة لدى جمهور القراء حينها.

ز- **الضرب على الوتر الحساس:** وهي عملية استغلال نقاط الضعف لدى المتلقي أو قابليته للتصديق أو سذاجته للتأثير فيه وتدجينه والتلاعب به، وهذا واضح حين قدم الجاحظ كلامه من دون بيّنة أو دليل عقلي مقنع.

ح- **الإطار المكره:** وهي عملية المراهنة على لفت المطوّع للقارئ إلى مسألة حساسة تشكل قضية معينة تتخذ علة الوصول إلى قضية محددة سلفًا وعنيت الشعوبية.

ولقد كان أبو عثمان بارعًا في إثارة قضية الشعوبية حين قال: متى أخذت بيد الشعوبي... في إشارة إلى قضية حساسة تعد علة العلل، ومعضلة العصر العباسي آنذاك.

ط- **المغالاة:** ويتلاعب المطوِّع بالألفاظ لإيهام المتلقي وتغليطه؛ لأجل ذلك وفي هذا الصدد يستعمل الكلمات المنتقاة؛ كقوله عن صاحب المنطق أنه "بكئ اللسان"، غير موصوف بالبيان... أن جالينوس... من البلاغة. أو كقوله عن الفرس: وفي الفرس خطباء... هو عن طول فكره وعن اجتهاد... إن مثل نشر هذه الإشاعات المغرضة من شأنها إحباط الآخرين وتعزيز موقف العنصر العربي.

ي- **إطار الافتراء:** هو اعتماد الإفتراء سلاحًا للدفاع عن فكرة يريد ترسيخها المطوع، وهكذا فعل الجاحظ في نصّه بحيث لجأ إلى الافتراء على الأقوام الأخرى لتثبيت مقولة أن العرب أكثر بلاغة وفصاحة من غيرهم.

ك- **القلق:** هناك قلق كبير على الهوية العربية لأن خوفًا كبيرًا كان يفرض نفسه، لأن العربي وجد نفسه يتعامل مع أمم اعتقد أن له الغلبة عليها، وقد ظهر أنه يتعامل مع أقوام مختلفة لها حضارات عريقة، ولها باع في العلوم والصنائع.

- **خاتمة:**

إن التناقض سمة من سمات نثر الجاحظ، لقد اقترن عنده بالمقدرة البيانية وقوة الإقناع، بصرف النظر عن قيمة الموضوع وطبيعته أو موقف المتكلم، فكل القضايا والمواقف يمكنها أن تكتسب الشرعية بالبيان، والأمر بالنهاية يعود إلى

القدرة على امتلاك الخطاب والتحكم في وسائله. وهذا ما سعى الجاحظ إليه في هذا النصّ، ولقد أشار الجاحظ غير مرة، إلى حسن الصناعة، وقوة البيان قبل الحديث عن المعاني والأفكار.

وهكذا أن أبا عثمان في "البيان والتبيين" يعمل على المحسنات اللفظية والبديعية لتمرير ما يشاء من الاتهامات، ولتبرير القصور الذي يزعمه عند الأعاجم، فهو لا يتورع عن نسبة الذم والتقصير في البيان لغير العرب، ويذكر بصلافة أن العرب مطبوعون على الفصاحة والبيان، وذلك بشكل عنصري واضح، وأن غيرهم يتوارثون ذلك، وهم لا يحسنون تدبر الكلام ولا الاتيان بالأفكار إلّا بعد تكلفٍ وعناء، وهو لا يفتأ يلجأ إلى المزيد من الأساليب لتبرير مقولته التي يريدها، ولتدعيم حجته، ولا يُستبعد أن يكون أبو عثمان قد قال ما قال عن غير العرب، زعمًا، لوقوعه تحت تأثير المصلحة الشخصية الضيقة!

***

الهوامش

*** يُعد أطروحة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها – المعهد العالي للدكتوراه – الجامعة اللبنانية**

(1) أبو حيان التوحيدي: البصائر والذخائر، تحقيق إبراهيم الكيلاني، مكتبة الإنشاء، 1964 (ج4، ص 232 – 233).

(2) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، مكتبة الحياة، لا تاريخ (ج1، ص 66).

(3) بديع الزمان الهمذاني (أحمد بن الحسين): مقامات بديع الزمان الهمذاني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت (ص87).

(4) المسعودي (علي بن الحسين): مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط4، دار الأندلس، بيروت (ج2. ص53 وما بعدها) 1981/1401

(5) الجاحظ (أبو عثمان بن بحر): البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ط4، دار الفكر، بيروت (ج 3، ص28).

(5) Philippe breton: la parole manipulée, éd. La découverte & Syros, paris 2000, (p23)

***

المصادر والمراجع:

- **المصادر:**
  - الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر، المتوفّى سنة 255 هـ/868م): البيان والتبيين (1–4)، تحقيق عبد السلام هارون، ط4، دار الفكر، لا تاريخ.
- **المراجع:**
  - أبو حيان التوحيدي (علي بن محمد بن العباس المتوفى 414هـ /1023م):
    الإمتاع والمؤانسة، ط1، تحقيق احمد أمين، المكتبة العصرية، بيروت 1424.
    البصائر والذخائر، ط1، دار صادر، بيروت، تاريخ 1988/1408م.
  - بديع الزمان الهمذاني (أحمد بن الحسين المتوفى 969هـ/1007م): مقامات بديع الزمان الهمذاني، تحقيق محمد عبده ، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت 2005/1426.
  - المَسْعُودي (أبو الحسن علي بن الحسين، المتوفّى سنة 346هـ/ 957م): مروج الذهب ومعادن الجَوْهر (1–4)، ط4، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1401هـ/ 1981م.
- **المراجع باللغة الأجنبية:**
  - Philippe breton: la parole manipulée, éd. La découverte & Syros, paris 2000.
- **المجلاّت والدوريات:**
  - مجلة عالم الفكر، المجلد 40 العدد 2. 2011.
  - مجلة الفصول، العدد (3) سنة 1994. تجنيس المقامة.

***